الوجه الآخر للمدنية الحديثة :

الإدمان على التدخين

الأخ نبيل شبيب

لم تواجه أمتنا الإسلامية حملة مركّزة على شخصيتها المتميّزة ووجودها كلّه أخطر من الغزو الفكري والاجتماعي على صعيد الأسرة والمدرسة ومختلف المؤسسات الثقافية والاجتماعية

ولقد بُذلت جهود مخططة منظمة ، واتُّبعت وسائل عديدة متنوّعة لإبراز الجوانب الإيجابية للمدنية الحديثة في أبهى صورة ، وتزويق جوانبها السلبية وتنميقها ، وتشويه صورة الإسلام لدى شبابنا وفتياتنا وتعميق جهلهم به ودفعهم إلى الاستسلام بأعين معصوبة لتيار تقليد الغرب في أخطر موبقاته التي بلغت ذروتها في الانحدار الخلقي والاجتماعي الرهيب في المجتمعات المدنية الحديثة (الراقية) .

ويواجه الداعية المسلم اليوم ضغوطاً متنوّعة وصعوباتٍ جمّة تجعله في كثير من الأحيان يتخذ موقف (الدفاع) عن دينه ، بل ربّما يتجنب المواجهة الفكرية لدعاة التغريب وحاملي راياته .. إمّا خشية الانزلاق فيما لا يريد أو لضعف سلاحه وعجزه عن كشف الجوانب السلبية للمدنية الحديثة وما تؤدي إليه من نتائج رهيبة على صعيد الفرد والمجتمع على السواء .

وكثيراً ما اقتصرت حملات بعض مجلاتنا على تلك الجوانب السلبية على الهجوم دون تقديم معلوماتٍ مقنعة أو التنديد دون الكشف عن الأسباب الخلفية وراء هذا الجانب السلبي أو ذاك

وأقرب من يمكنه إدراك عمق الانحدار الخلقي والانحلال الاجتماعي في المجتمعات الحديثة هو من عاش فيها ردحاً من الزمن واستطاع استقراء الأسباب وتلمّس النتائج .. فإذا قدّم للدعاة الإسلاميّين وللشباب المسلم عامة صورة مدعومة بالإحصاءات والمعلومات الموثوقة ، أمكن استخدامها كسلاح من المعرفة يساعد في التحوّل من موقف (الدفاع) إلى موقف (الهجوم) على أساس من الإيمان القويّ والمعرفة الواعية

وقد يستغرب بعض القراء إدراج (الإدمان على التدخين) في هذا المجال[1] .. ولكنّ الواقع أنّ المدنية الحديثة لم تعرف ظاهرة أخطر ولا أوسع انتشاراً منه . وقد يعود الاستغراب إلى أن أخطار (الإدمان على التدخين) لا تبدو بوضوح للعيان إلاّ بعد استفحال شرّها .. فضلاً عن أنّ النظرة الاجتماعية له –بفعل المصالح الكبرى وراء صناعة

التبغ- لم تبلغ بعد درجة (الازدراء) أو (الرفض) ، ممّا كان -لو تحقّق- عاملاً مساعداً على الإقلاع عن التدخين .

وقد نشرت مجلة (الشبيجل) الألمانية الغربية بمناسبة ظهور نوع جديد من لفافات التبغ وصف بخلوّه مـــن مـــادة (النيكوتين) تحقيقاً موسعاً حول التدخين في العدد الصادر يوم ١٩٧٤/٠٩/١٦م ، جاء في مقدمته :

{تشهد الأسواق لأول مرة لفافات تبغ خالية من النيكوتين .. فهل هذا هو المخـــرج والـــسبيل إلى (تـــدخين صحي)؟ .. إنّ علماء الطب لا يساورهم الشك في أنه رغم تخفيف نسبة هذه المادة الضارة الرئيسية في لفافات التبغ الجديدة إلى حد بعيد فإن (التدخين) سيبقى أخطر الأوبئة المعروفة اليوم .. وهو أسوأ بمراحل من تعاطي المخدرات أو تناول المشروبات الكحولية} .

من خلال الأرقام

واستندت المجلة إلى دراسة علمية صادرة عن وزارة الصحة بألمانيا الغربية تؤكد عن أن (التدخين) هو السبب الرئيسي أو السبب المساعد بشكل رئيسي في الإصابة بأمراض خطيرة تؤدي إلى الوفاة في أغلب الأحوال ، منها :

- سرطان الحنجرة
- سرطان القصبات الهوائية
- سرطان المعدة وغدة البنكرياس
- تصلب الشرايين الإكليلية في القلب مع خطر الإصابة بالسكتة القلبية
- الالتهابات الرئوية المزمنة
- الأورام الْمَعِدية والمعوية على اختلاف أنواعها ..

فضلاً عن أن نسبة عالية من وفيات المواليد تعود إلى إضرار إدمان الأمهات الحوامل على التدخين بالأجنّة

وأوردت الدراسة المذكورة أرقاماً توضيحيةً منها :

- أن عدد الوفيات في ألمانيا الغربية عام ١٩٧٢م لأسبابٍ تعود إلى (التدخين) على الأغلب تجاوز (١٤٠) ألفاً ، أي ما يعادل ٢٠% من مجموع الوفيات
- وأن عدد الوفيات بمرض السرطان الرئوي - والتدخين أحد أسبابه الرئيسية- بلغ عـــام ١٩٧١م (٢٣٧٠٦) حالة وفاة في ألمانيا الغربية وحدها مقابل (١٨٧٥٣) حالة وفاة على طرق السيارات على سبيل المقارنة
- وتقول دراسة أمريكية ظهرت قبل عشرة أعوام استناداً إلى أبحاث إحصائية مطولة ، وعُرفت باســـم تقريـــر تيري ، إنّ نسبة تعرّض المدخن إلى الإصابة بمرض السرطان الرئوي تعادل أكثر من (١٠) أمثال تعرّض غـــير المدخن إلى ذلك

- والتدخين هو السبب الرئيسي في حوالي (٩٥%) من مجموع حالات الوفاة نتيجة مرض سرطان القــصبات الهوائية .. ومن المعروف أن هذا المرض من أوسع الأمراض الخطيرة انتشاراً بين الرجال في المجتمعات الغربيــة الحديثة .. ولا يكاد يمكن إنقاذ حياة أكثر من ٣% ممّن تثبت إصابتهم به
- وأكد المؤتمر الدولي الأخير لمكافحة السرطان في ألمانيا الغربية لعام ١٩٧٦م مجدداً على الصلة الوثيقــة بــين (التدخين) والعديد من الأمراض المذكورة أعلاه ، لا سيما السرطان الرئوي .. وأكدت الرابطــة الاتحاديــة للرعاية الصحية في ألمانيا الغربية على أن (التدخين) هو السبب الرئيسي لظهور السرطان الرئوي وســرطان القصبات الهوائية وأمراض الالتهابات الرئوية ، كما أنه عامل رئيسي في حدوث (السكتة القلبية)[٢]
- واحتمال الإصابة بالسكتة القلبية الواسعة الانتشار يزيد بين المدخنين بمعدل (٣-٥) أمثال احتمال وقوعهــا بين غير المدخنين[٣]
- وحذرت وزارة المواصلات الاتحادية من (التدخين) أثناء قيادة السيارات لأنه يؤدي -كما تقول دراسة علمية صادرة عن جامعة (هايدلبيرج) - إلى إضعاف القدرة على التركيز وإضعاف القدرة على التركيز وإضــعاف حاسة البصر وإلى الصداع[٤]
- وأُجريت سلسلة أبحاث إحصائية شملت (٣٦٩٧٠) شخصاً من المدخنين وغير المدخنين بنــسبة متــساوية ، فتوفي بعد بضع سنوات (١٣٨٥) من المدخنين مقابل (٦٦٢) من غير المدخنين ، وكانت وفيات الفئة الأولى بمرض السرطان الرئوي (١١٠) حالات مقابل (١٢) حالة لدى الفئة الثانية . ولا تزال الأبحاث الإحــصائية من هذا النوع جارية على أكثر من مليون شخص في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وكندا في الدرجة الأولى .

من أضرار التدخين

والقول الشائع إنّ (السجائر الغليظة) أو (الغليون) أخف ضرراً من لفافات التبغ العادية لا يعتمد على أي أســاس من الصحة . وما تعد شركات التبغ به من تخفيف للأضرار الصحية عن طريق ما تدخله من تحسينات على لفافــات التبغ أو عن طريق صناعة أنواع جديدة منها لا يتجاوز (تخفيف) حدّة المشكلة ولكنه لا يزيلها على الإطلاق ..

والواقع أن (النيكوتين) ليس سوى إحدى المواد (السامة للخلايا العصبية) في التبغ ، ويتمثل تأثيره الأكبر في (شل عمل مراكز التنفس في الدماغ) ، ويكفي خمسون (ميليجراماً) منه لقتل الإنسان ، ولكنَّ نسبة (١%) من هــذه الكمية أي ما يعادل نصف (ميليجرام) فقط (0,0005 جرام) تكفي -إذا دخلت الجسم عن طريق التــدخين- للتأثير على العمليات الحيوية للخلايا العصبية تأثيراً كبيراً مع ما يرافق ذلك من شعور بنوع من المتعة . وعنــدما تصل هذه الكمية الضئيلة إلى الأوعية الدموية تؤثر على القلب بشكل وصفه بروفسور (كلينش) من جامعة بــون بقوله :

(إنّ عشرين لفافة تبغ موزعة على أربع وعشرين ساعة ترهق القلب السليم إلى درجة تعادل إرهاقه بالسفر علـــى دراجة عادية لمدة ثماني ساعات متواصلة . أما إذا كان القلب مريضاً فإن نصف لفافة تبغ كاف لتعريض صـــاحبه إلى أخطار اختلال توازن نسبة الأكسجين في خلايا جسمه وعدم قيام الدم بوظيفته في تغذية النسج العضلية مـــع احتمال الإصابة بالسكتة القلبية)

ولكن أضرار التدخين –كما أسلفنا– لا تنحصر بحال من الأحوال في مادة (النيكوتين) وحدها ، وقـــد حلـــل العلماء ما يدخل الرئة من لفافة التبغ بشكل تفصيلي وأثبتوا أن هذا يشمل (١٠٠٠) مادة غازية وصـــلبة ، ولا تعرف بعد ردود فعل المواد الحيوية المضادة في الجسم عليها جميعا . ويبدو (النيكوتين) بينها واحداً مـــن منـــابع الخطر وليس هو بأشدها فتكا . ومنها على سبيل المثال :

- غاز أول أكسيد الفحم المعروف بتأثيره السام .
- عنصر (الرصاص) الثقيل السام الذي يتجمع فلا يستطيع الجسم إفرازه .
- مادة تدعى (بينـــزبورين) لا خلاف بين العلماء حول تأثيرها الفعال في ظهور السرطان .
- ثاني أكسيد (السيلين) ، وهو غاز سام أيضاً ينتج عن احتراق أوراق لفافات التبغ .
- عنصر (البلونيوم) المشع الذي يتركز في رئة المدخن ويفتك بها .

ومن أشد المواد خطراً وضرراً –في نظر العلماء– ما يسمى بـ (قطران التبغ) ، وهو تلك المادة اللزجة الصفراء التي تؤدي إلى اصفرار الأسنان ونخرها والالتهاب اللثّة ، والتي يراها المدخن تلون مصفاة التبغ (الفيلتر) بشكل واضح .

ومن الصعوبة بمكان تعداد هذه المواد الضارة جميعاً فضلاً عن تعداد أضرارها التي تتراوح بين شل ما يسمى بعملية (التنقية الذاتية للرئتين) وبين إحداث تغييرات في تركيب الخلايا النسيجية تؤدي بدورها إلى الأورام الخبيثة .

انتشار التدخين في ظل المدنية الحديثة

رغم أن زراعة التبغ وتدخينه كانا معروفين بشكل أو بآخر قبل العصر الأوروبي الحديث ، لا سيما عند الهنـــود الحمر فإن النهضة الأوروبية الصناعية هي التي أدت إلى انتشار التدخين انتشاراً واسع النطاق بالصورة الـــتي نراهـــا اليوم(٥)

وتبين الإحصاءات وعمليات استطلاع الرأي مدى ارتباط الإدمان على التدخين بالظروف التي أوجدتها المدنيـــة الحديثة .. ونجد أن نسبة استهلاك لفافات التبغ في البلدان (المتقدمة) ترتفع ارتفاعاً كبيراً فتصل في الولايات المتحـــدة الأمريكية إلى (٣٨٥٠) لفافة تبغ سنوياً للشخص الواحد ، أي بما في ذلك غير المدخنين والأطفال .

وتصل هذه النسبة إلى (٣٤٤٠) لفافة تبغ سنوياً في كندا

و(٣٣٢٠) في سويسرا

و(٣٠٣٠) في بريطانيا

و(٢٩٠٠) في بولندا

و(٢٨٤٠) في اليابان

و(٢٥٠٠) في ألمانيا الغربية .

و(٢٣٨٠) في رومانيا

وهذه النسب في ارتفاع مستمر .. ففي عام ١٩٦٠م لم يكن وسطي استهلاك لفافات التبغ السنوي للفرد بألمانيا الغربية –على سبيل المثال– يزيد على (٦٠٠) فقط فقفز هذا الرقم عام ١٩٧٣م إلى (٢٥٠٠)

وقد بلغ مجموع عدد لفافات التبغ المستهلكة في ألمانيا الغربية خلال عام ١٩٧٤م (١٢٨) ملياراً تعــادل قيمتــها (١٤,٤) مليار مارك ، تأخذ الدولة منها (٩) مليارات على شكل ضرائب[٦]

كما ازداد إقبال المرأة على التدخين ، فارتفعت نسبة النساء المدخنات إلى مجموع النساء الألمانيات مــن (١٦%) عام ١٩٧١م إلى (١٨%) عام ١٩٧٤م وأصبحت تعادل ثلث مجموع المدخنين رجالاً ونساء .. وخلال نفس الفترة المذكورة كانت الإحصاءات تسجل ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان الرئوي بين النساء[٧]

وارتفعت أيضاً نسبة المدخنين بين صغار الشباب والفتيات ، وتذكر الإحصاءات أن ٣٣% من أبناء الإثني عــشر عاماً مدمنون على التدخين ، وأن ٧٠% منهم قد دخّنوا مرة على الأقل ، وأن ٥٦% منن تتراوح أعمارهم بين ١٤ ١٦ سنة يدخنون بانتظام أيضاً ، وأن ٢٥% على الأقل من أبناء السبعة عشر عاماً مدمنون على التــدخين إدمانــاً كاملا[٨]

وتقول معاهد الدراسات النفسانية إنّ أول ما يمسك الفتى أو تلك بلفافة التبغ يفعل ذلك من باب حب إشــباع الفضول أو بتأثير الأصدقاء والرغبة في تقليد الكبار

ويعلل العالمان النفسانيان (شنيكر) و(بارتمان) من ألمانيا الغربية هذه الظاهرة بأن التدخين أصــبح يــرتبط لــدى الشباب في المجتمعات الحديثة خاصةً بالشعور بالبلوغ والقوة والفعالية والرجولة

وللأسرة في هذا المجال تأثيرُها الأكبر ، فقد ثبت إحصائياً أن معظم المدخنين ينتمون إلى أس يتعاطى فيهـــا أحـــد الوالدين أو كلاهما التدخين أيضا

وتقول عملية لاستطلاع الرأي إنّ المدخنين يعللون إدمانهم على التدخين بالشعور بالمتعة أو بتوتر الأعـــصاب أو بالشعور بالملل

محاولات العلاج والمصالح المضادة

إنّ أضرار التدخين لم تعد موضع خلاف حقيقي على صعيد العلماء والأطباء ، ولكنها لا تزال موضع أخـــذ وردّ بين الشركات الصناعية الكبرى التي تجني الأرباح من ورائها وبين وزارات المالية التي تجني الـــضرائب الماليـــة وبـــين وزارات الصحة في بعض البلدان المتمدنة

ولا عجب في ذلك فحجم ميزانية شركة تبغ كبرى مثل شركة (Britsch American Tobaco) كان يزيـــد عـــام ١٩٧٤م على (٥,٥) مليار دولار .. وقفزت بذلك من المرتبة (٦٠) إلى المرتبة (٤٨) بين الـــشركات الـــصناعية في العالم[٩]

وقد اقتصرت محاولات العلاج بشكل عام على مواجهة الأعراض في الدرجة الأولى . وإذا استثنينا من الحـــديث المصحات المعدودة التي أقيمت للراغبين في الإقلاع عن التدخين لضعف فعاليتها إلى الآن ، نجد بعض البلدان بـــدأت تلجأ إلى القوانين للحد من انتشار التدخين . ومن هذه المحاولات منع الدعاية في الإذاعات والتلفزيـــون (في ألمانيـــا الغربية ابتداء من ١٩٧٥/٠١/٠١م) مما تقول عنه مجلة الشبيجل إنه لم يتم إلاّ بعد أن أصبحت شركات التبغ على ثقة من أنّ ازدياد انتشار التدخين لم يعد رهناً بالدعاية المباشرة الغالية التكاليف

ومن المحاولات القانونية أيضاً النموذج السويدي المزمع تنفيذه ، والذي يرى منع الدعاية إلاّ في حوانيـــت بيـــع منتجات التبغ نفسها وإلغاء البيع في الأجهزة الآلية المنتشرة في كل مكان ، ورَفْع أسعار لفافات التبغ سنوياً بمعـــدل (١٠%) ، وحَظْر بيعها على الشباب دون السادسة عشرة من العمر .

وبعـــد ..

مهما كان مفعول هذه المحاولات -إذا نجحت- فسيبقى دون المستوى الذي تتطلبه خطورة المشكلة .

إنّ العلاج الحقيقي هو الذي يتركز على الجوانب النفسية والاجتماعية لظاهرة الإدمان على التـــدخين ، ولكنـــه يتطلب بدوره إحداث تحول جذري في تركيب المجتمعات الحديثة ، لا سيما على صعيد الأسرة بعد كل ما أصابها من انحلالٍ وتفكك .. وهذا ما لا توجد له المنطلقات الضرورية سواء في تاريخ هذه المجتمعات أم في واقع تركيبها الحالي

وسيبقى الإدمان على التدخين أحد الجوانب العديدة التي تمثل (الوجه الآخر للمدنية الحديثة) والتي وجدت طريقاً تتسرب فيه إلى البلدان النامية أسرع مما تتسرب الجوانب الأخرى .. والجدير بالأمة التي تقف على أبواب التقدم التقني والعلمي الحديث أن تتنبه إلى هذه الجوانب الأخرى .. والجدير بالأمة التي تقف على أبواب التقدم الـــتقني والعلمـــي الحديث أن تتنبه إلى هذه الجوانب السلبية فتعمل على مواجهتها مواجهة فعالة من البداية ، بالعمل على بناء تكوينـــها الاجتماعي وتربية شبابها على أساس قوي متين .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

صدق الله العظيم

---

(١) نفضل استخدام اصطلاح (الإدمان) على كلمة (عادة) التي تقول بها منظمة الصحة الدولية عن (التدخين) رغبة في إبراز العوامل المشتركة بين التدخين و(المخدرات) و(المشروبات الكحولية) من حيث النشوة العابرة والأضرار الجسمية الفادحة وشعور الارتباط القوي بها .

(٢) مجلة (آمفورا) الصيدلانية العلمية بألمانيا الاتحادية – عدد آذار/مارس عام ١٩٧٦م .

(٣) يرجع في موضوع العلاقة بين (التدخين) والأمراض السابقة ولا سيما السرطان الرئوي إلى كتاب الدكتور نبيل صبحي الطويل (التدخين وسرطان الرئة والأمراض الأخرى) ، وعلى وجه الخصوص الصفحات ٥٠–٥٨ ، دار العربية في بيروت ٨٨هـ/٦٨م .

(٤) نشرة الأخبار في البرنامج الأول للتلفزيون الألماني يوم ٧٦/٠٤/٢٢م .

(٥) راجع لمزيد من التفصيل كتاب الدكتور نبيل صبحي الطويل أيضاً ، ص ١١–١٤ و١٩–٢٤ .

(٦) يعادل هذا الرقم أربعة أمثال مجموع ما قدمته ألمانيا الاتحادية من مساعدات إنمائية عام ١٩٧٤م .

(٧) الشبيجل في ٧٥/٠١/٠٦م و٧٥/٠٢/٢٤م .

(٨) الشبيجل ٧٤/٠٩/١٦م وصحيفة جنرال آنتسايجر في يوم ٧٦/٠٤/٢١م .

(٩) عن مجلة (فيرتشافت فوخه) الاقتصادية الألمانية ، يوم ٧٥/٠٨/٢٢م .